مادّة: الأدب الصوفي الجزائري **السنة الثالثة ليسانس/ أدب جزائري**

الدرس رقم01 **أستاذ المادّة: بن زياني**

مدخل إلى الأدب الصوفي الجزائري

1)التصوف لغة:

اختلفت المفاهيم المحدّدة لماهية التصوف وأصل جذرها اللغوي، إذ ربطها البعض بلبس الصوف، فهي تختص بالمظهر الخارجي للصوفي، فيما يذهب رأي آخر إلى نسبتها إلى ما يختلج في الدواخل من نقاء النفس وصفائها، فربطت بكلمتي " صفاء" و " صفة "، فحين يرى آخرون أن أصلها إغريقي محض من كلمة صوفيا الدالة على الحكمة مستبعدة في هذا النطاق المعجمي؛ لأن كلمة صوفيا التي تحيل على العقل والمنطق تتناقض مع العرفان الروحاني والذوق الوجداني، كما أن التصوف بعيد عن كل اشتغال حسي وعقلي وذهني وأميل إلى الحدس العرفاني والتجربة الباطنية.

وتشتق كلمة التصوف من فعل صوّف جعله صوفيا، وتصوّف صار صوفيا، أي تخلق بأخلاق الصوفية.

والصوفية فئة من المتعبدين، واحدهم الصوفي. قال ابن خلدون في كتابه (المقدمة):" قال القشيري رحمه الله ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر أنه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفا أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي. قال: وكذلك من الصوف... قلت: والأظهر إن قيل بالاشتقاق إنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف".

وقيل: إن كلمة التصوف تشير إلى أهل الصفة من الفقراء الزهاد المهاجرين الذين كانوا يسكنون صفة المسجد في المدينة، وكانوا يقلون تارة ويكثرون تارة أخرى، فمن استغنى منهم ترك المسجد وذهب لحال سبيله ليكد في الحياة، ومن لم يجد التزم بالصفة حتى تتحسن أحواله المادية.

والذين يربطون التصوف بأهل الصفة فإنهم يقرنون التصوف بالمهاجرين الأنصار، فهذا رأي غير صحيح لا منطقيا ولا واقعيا ولا لغويا، لأن المنسوب إلى الصفة في علم الصرف "صفيّ" وليس "صوفيّ"

وهناك من يقرن التصوف بلبس الصوف الذي كان علامة أيقونية بصرية تحيل على الممارسة العرفانية والتزهد في الحياة والتقشف في الدنيا والاعتكاف على العبادة والصلاة والدعاء.

ويبدو لنا أن ربط التصوف بالصوف ربط مقبول يستسيغه العقل والمنطق وتقبله القرائن التاريخية واللغوية، فحتى الرهبان النصرانيون الصوفيون كانوا يلبسون الصوف في أديرتهم وكنائسهم، وقد تأثر بهم الشيعة وأهل الباطن في لباسهم ذاك إلى يومنا هذا وخاصة شيعة العراق وشيعة إيران وشيعة لبنان.

وهناك من قال بأن التصوف يرتبط أشد الارتباط بالصفاء والصفو، فالمتصوفة ليس لهم من شغل سوى تصفية قلوبهم من أدران الجسد وشهوات الحياة قصد تحقيق الصفو الروحاني، ولكن كلمة الصفاء أو الصفو تنسب إلى"صفويّ" وليس إلى "صوفي.

وعلى أي حال، لقد اشتقت كلمة "التصوف" من الصوف وهي أقرب دلالة اشتقاقية يقبلها العقل والمنطق.

ويقول أحمد أمين في كتابه" ظهر الإسلام":" وقد اختلف الناس في نسبة الكلمة هل هي من الصفة، أو من الصفاء، أو من صوفيا وهي باليونانية بمعنى الحكمة. أو من الصوف ونحن نرجح أنها نسبة إلى الصوف لأنهم في أول أمرهم كانت هذه الفرقة تلبس الصوف اخشيشانا وزهادة، كما نرجح أنها كانت ترتكز في أول أمرها على أساس إسلامي".

2) التصوف اصطلاحًا:

يوجد لمفهوم التصوف في الاصطلاح كثير من التعريفات قد وضعها أئمة التصوف الأوائل كالجنيد والداراني وسهل التستري وسمنون وغيرهم؛ إذ قد أحصى له الباحثون ما يربو على 60 تعريفًا قالها أولئك العلماء، وكلّها تدور حول مفهوم واحد هو أنّه طريقة لعبادة الله –سبحانه– قوامها الخروج من الملذات والتلبّس بأخلاق الإسلام التي كان عليها النبي –عليه الصلاة والسلام– وصحابته رضي الله عنهم، والأخذ بجوهر الشريعة الإسلامية وحقيقتها، ومن ذلك ما قاله معروف الكرخي: "التصوّف الأخذ بالحقائق واليأس ممّا في أيدي الخلائق"، وأيضًا ما قاله بشر الحافي: "الصوفي من صفا لله قلبه".

ويقول ابن خلدون في مقدمته عن علم التصوف:" هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمّة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة".

كما يشير محي الدين بن عربي وهو من أقطاب التصوف (ت 840 هـ) إلى أن التصوف سمو أخلاقي في قوله:" قال أهل طريق الله التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف".

ويعرّف الأمير عبد القادر التصوف بأنّه :" جهاد النفس في سبيل الله أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية، لا لشيء آخر غير سبيل الله".

وتُعرف الباحثة مسعودة عطاء الله التصوف في قولها:" هو رحلة روحانية تعتمد على الخلوة والتجلي الرباني،أو اللقاء العرفاني المتوج بالوصال والكشف الإلهي، ويعني هذا أن المريد السالك لكي يحقق مراده ألا وهو الوصول إلى الحضرة الربانية، عليه أن يتجرد من أوساخ الدنيا، ويتوب إلى الله، وأن يتطهر من كلّ أدران الجسد ويبتعد عن ملذات الدنيا، ويترك جانب شهوات الحياة ومتاعها الزائفة الواهمة".

فالتصوف إذن هو طريقة ونهج في سلوك العبادة، عمادها الزهد والتوبة.

3) الأدب الصوفي في الجزائر: نشأته وتطوّره: يمكن إرجاع نشأة الأدب الصوفي في الجزائر إلى مظهرين: المظهر الأوّل: مهد لنشوء التصوف في المغرب الأوسط خلال القرن (6هـ-12م) بحركة زهدية امتدت من القرن (3هـ-9م) إلى القرن (6هـ-12م) وهو أنتجت التصوف بتيارات المتنوعة كان الأدب الزهدي أيضا قد سبق الأدب الصوفي من حيث الظهور وتعدد الأغراض. فقد برزت خيوطه الأولى في قصائد الشاعر بكر بن حماد بن سمك بن إسماعيل الزناتي التهرتي (ت 295هـ-909م) الذي تأثر في رحلاته إلى المشرق ورحلاته المتكررة إلى أفريقية (تونس) بشعرائها وعلمائها وصوفيتها.

ومن أبرزهم بالقيروان الزاهد الفقيه سحنون بن حبيب التنوخي (ت 240هـ-845م) فتجرع عنه منهجه القائم على الزهد في الدنيا والتعبد وفق الشريعة، لذا كانت أشعاره تتمحور حول محاسبة النفس والتذكير بالموت كقوله:

وقد مرقت نفسي وطال مروقها ⁂ لقد جمحت نفسي فصدت أعرضت

وضوء نهار لا يزال يسوقها ⁂ فيا أسفي من جنح ليل يقودها

وجرع الموت سوف أذوقها ⁂ إلى مشهد لا بد لي من شهوده

ويذهب عنها طيبها وخلوقها ⁂ ستأكلها الديدان في باطن الثرى

وكذلك أشعاره في الزهد والتذكير بالموت قوله:[5]

وفعلنا فعل قوم يموتونا ⁂ الموت أجحف بالدنيا فخربها

فالحاملون لعرش الله باكونا ⁂ فالآن فابكوا فقد حق البكاء لكم

لو كان جمع فيها كنز قارونا ⁂ ماذا عسى تنفع الدنيا مجمعها

ونجد أشعاره تعكس تجربته الزهدية التي عبر فيها عما يختلج في نفسه والتي سمحت لنا بتصنيفه ضمن الزهد الوجداني الذاتي، وقد دخلت المغرب الأوسط مع الزاهد قاسم بن عبد الرحمان بن محمد التهارتي الذي تلقاها مباشرة عن شاعرها بالقيروان وعن طريقه انتشرت بحواضر المغرب الأوسط.

أما المظهر الثاني: يعود أدب الزهد في هذه المرحلة المبكرة إلى أواخر القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد، عندما شارك الزاهد أحمد بن نصر الداودي المسيلي (ت 402هـ-1013م) من تلمسان ' فقهاء القيروان بزعامة عبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت 389هـ-999م) في ردهم على الطائفة البكرية التي مثلها عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله البكري ادعى رؤية الله في اليقظة' بتأليفه كتابا بعنوان "الرد على البكرية" اقتفى فيه أثر ابن أبي زيد القيرواني في الجدل حول إثبات كرامات الأولياء, فكان هذا المصنف أول كتاب في الأدب الصوفي بالمغرب الأوسط, لم ينكر فيه الداودي كرامات الأولياء , إلا أنه تبنى موقف ابن أبي زيد القيرواني في التشدّد على التصوف المائل إلى الشعوذة.

وفي ذات السياق ظهرت مناهج زهدية متفرقة ارتبط أصحابها في علاقاتهم الأدبية بحواضر العالم الإسلامي فبينما ارتبط أبو محمد بن عبد الله التاهرتي (ت 313هـ-905م) برباط سوسة واختص بفلسفة زهدية فكرتها المحبة والشوق، وثق أحمد بن مخلوف المسيلي المعروف بالخياط(ت 393هـ-1003م) وعبد الله بن زياد الله الطبني (ت 410هـ-1011م) صلتهما بقرطبة فلتزم الأول منهجه العملي القائم على المرابطة' واختص الثاني في أدب التنسك في حين وسع أبو القاسم عبد الرحمان الهمذاني المعروف بالخراز الوهراني (ت 11هـ-1018م) من علاقاته بحكم رحلته العلمية التي استغرقت عشرين سنة وشملت بيئات الزهد والتصوف كالبصرة وبغداد والحجاز ومصر وخرسان ونيسابور ثم الأندلس صنع من خلالها طريقة زهدية جمع فيها بين الالتزام بالسنة النبوية والانقباض والعلم والورع والسخاء والمروءة.

وكذلك استفاد أحمد بن واضح من رحلاته إلى المشرق في القرن (5هـ-11م)تعكسها تلك المناظرات التي خاضها مع فقهاء بجاية والتي تمثل أحد أوجه الجدال بين الفقه وأدب الزهد.

وفي المقابل تلقى أدب الزهد بالمغرب الأوسط جرعة قوية على يد النزلاء من الزهاد الأندلسيين، حيث أطر أبو عبد الملك مروان بن محمد الأندلسي (ت 440هـ-1048م) نشاطه الزهدي بتأسيسه لرباط درس فيه العلم وصنف فيه المصنفات' بينما اقتصر الزاهد علي بن محمد التدميري (ت 347هـ-958م) على التأليف في الفقه وأدب الزهد' وحتى نهاية النصف الأول من القرن (5هـ-11م) كان أدب الزهد بالمغرب الأوسط يستمد أفكاره ومواضيعه من أدب الزهد والتصوف الذي عرفته مدينة القيروان قبل خرابها من طرف القبائل الهلالية سنة (449هـ-1057م) وكذلك من قرطبة والبصرة وبغداد والحجاز، وقد نتج عن هذا الارتباط ظهور على المستوى العملي تيارين زهديين يعتمد الأول منهج المجاهدة العملية من خلال المرابطة في الثغور والسواحل لحراستها من الخطر المسيحي، وتيار ثاني التزم أصحابه الزهد في الدنيا والاعتكاف على المجاهدات والمكابدة على نشر العلم الذي يعد أدب الزهد أحد محاوره الرئيسة.

ويمكن أن نلخص المراحل التي مرّ بها التصوف على هذا النحو:

المرحلة الأولى: تميزت بالزهد والبعد عن الحياة المادية والتسامي عن ملذات الحياة، وهذا في القرنين الأوّل والثاني الهجريين (817هـ).

المرحلة الثانية: شهدت إغراقا في الزهد والتقشف، وتمتد من بداية القرن الثالث إلى أواسط القرن الرابع الهجريين (10/9هـ).

المرحلة الثالثة: مرحلة الاقتراب من التصوف، وكانت البداية لأفكار الصوفية والخيالات، وهذا في القرن الرابع الهجري (10هـ).

المرحلة الرابعة: تعد مرحلة اكتمال تكون التصوف، بتنظيمه، وتشكل الطرق الصوفية، والخوض في الكرامات، وتمتد هذه المرحلة من أواسط القرن الخامس الهجري (11هـ).

المرحلة الخامسة: وهي مرحلة المبالغة في إدعاء الكرامات، والاهتمام بها ويطلق عليها البعض مرحلة الجنون والهذيان.